تشابك الخطاب الديني بالخطاب المصلحي في النظرة الغربية إلى الشرق

د. جان جبور*

في ١٣ أيلول ٢٠٠١ وبعد مرور يومين على الأحداث التي ضربت الولايات المتحدة، توجه الرئيس بوش إلى الشعب الأميركي بكلمة ورد فيها: «يقول الكتاب المقدس: طوبى للحزانى فإنهم يعزّون... إزاء كل هذا الشر المتزايد سنبقى أقوياء وموحدين «أمة تحت أنظار الله»... أطلب إلى شعب الولايات المتحدة كما إلى أماكن العبادة أن يحييوا غداً نهار الصلاة والذكرى بإقامة الشعائر الدينية وقرع الأجراس ظهراً، وعند المساء برفع الابتهالات على ضوء الشموع... بناء عليه أذيّل بتوقيعي في هذا اليوم الثالث عشر من أيلول من العام ٢٠٠١ لولادة السيد، في السنة الـ ٢٢٦ لاستقلال الولايات المتحدة الأميركية». من يسمع هذا الخطاب يدرك بأن التاريخ يتمحور في ذهن الرئيس الأميركي حول محطتين فاصلتين: ميلاد السيد المسيح، وولادة الولايات المتحدة الأميركية، وهما الوحيدان المخولان انقاذ العالم من براثن الشر. وفي اليوم التالي وأثناء الاحتفال الذي أقيم في الكاتدرائية الوطنية، أتى خطاب الرئيس يحمل نفساً ملحمياً يذكرنا بمراثي إرميا بدل أن يكون خطاباً سياسياً بامتياز، وكان أشبه بإعلان حرب من على منبر كنيسة. هذا التوجه التهديدي والذي كثرت فيه زلات اللسان ذات الدلالة، أعطى مشروعية للرأي القائل بأن هذا الكلام العدائي

* أستاذ في الجامعة اللبنانية.

هو مظهر من مظاهر الصراع التاريخي بين عالم الغرب المسيحي وعالم الإسلام، والضارب بجذوره إلى أكثر من ألف عام في الماضي. وما يعطي هذا الرأي مشروعيته ـ كما يثير الاستغراب في آن ـ هو أن نسمع خطاباً في مطلع القرن الحادي والعشرين يقسم العالم والشعوب إلى أهل خير وأهل شر. وهي الثنائية الضدية التي طبعت أدبيات القرون الوسطى. فكأنه مكتوب للعلاقة بين الشرق والغرب، وبين المسيحية والإسلام، أن تتخذ مساراً دائرياً، فتعود دائماً إلى نقطة الانطلاق. هذه العلاقة الملتبسة، تطرح تساؤلاً مشروعاً حول علاقة الغرب بالإسلام: هل هو صراع ديني وثقافي، أم سياسي ومصلحي بشكل عام؟

أولاً- المقاربة الأولى: الحروب الدينية

حين تخطّت جيوش المسلمين جبال البيرينيه ما بين الأعوام ٧١٥م و ٧٢٠م، لم يكن أحد في الغرب يعرف الكثير عن الحضارة العربية أو عن الدعوة الإسلامية، ما عدا بعض الحجاج إلى الأراضي المقدسة، ومعظمهم من رجال الدين. فأوروبا الغارقة في صراعاتها الداخلية كانت من الوجهة الدينية منصرفة إلى محاربة الوثنية المتجذرة، والانحرافات والشعوذات، ولم تكن تعرف سوى القليل عن عالم بعيد ومغلق. لذا كانت صدمتها كبيرة وهي ترى تدفق جيوش منظمة تغزو شبه الجزيرة الإيبيرية، بسرعة مذهلة، وتواصل تقدمها حتى جنوب فرنسا عام ٧٣٢م. وساد القلق والخوف من هذه «الأمة المتوحشة» التي أُطلق على أبنائها تسمية «السرزانيين». وراح رجال الدين يدققون في نصوص الكتاب المقدس، مرجعهم الوحيد، لمعرفة أصول هؤلاء «الكفار» ومعتقداتهم. وسرعان ما تشكّلت صورة نمطية لأمة لا تستسيغ سوى العنف والتدمير والنهب والقتل، ولا تؤمن إلا بالخرافات والبدع، ولا يحكم تصرفها أية خلقية. إنها الشر المطلق في مواجهة الخير.

إلا أن هذا اللقاء الأول حصل في زمن لم يكن مفهوم الشرق والغرب قد توضح، إذ لم تتبلور المعالم الجغرافية والفكرية لهاتين الكتلتين في الغرب إلا مع انطلاقة الحروب الصليبية، وربما بشكل أوضح إبان عصر النهضة في القرن السادس عشر. أما في الشرق فقد بدأ هذا الإحساس يتشكّل مع سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣. فاللقاء الفعلي تم إذن في إطار الحرب الدينية «الحروب الصليبية»[١] حيث كان الاحتكاك من خلال وهم: تحرير الأراضي المقدسة من أيدي الكفرة. ولم يكن في الواقع سوى حرب أمراء يفتشون عن

إقطاعة، ـ وإن صغيرة ـ، يبسطون عليها سيطرتهم. إنها ـ إذا جاز التعبير ـ، حرب «توسع إقطاعي». وقد حاول البابا أوربانوس الثاني توحيد القوى العسكرية المشتتة تحت سلطة الملوك والأمراء، بأن حدّد لها هدفاً بعيداً أشبه بالرمز «فلسطين»، وأوهمها بوجود عدو مشترك يتربص بها «الكفرة» الذين يدنسون الأراضي المقدسة.

ومن مراجعة سريعة لأدبيات تلك الحقبة –ولا مجال الآن للدخول في تفاصيلها– يتبين لنا بأن معظمها يتخذ من الحدث العسكري منطلقاً ليصوّر عالماً قُسِّم إلى شطرين متقابلين، أحدهما يمثّل الخير والآخر الشر. من جهة عالم النور والحقيقة والإيمان، ومن جهة أخرى نقيضه عالم الظلمة والضلال والكفر.

لقد ترسّخت هذه الصورة في الوعي الشعبي بسبب الجهل الناجم عن الوهم والتخيل. وإذا كان معظم الذين حملوا السلاح من الفقراء والمشردين الذين اعتقدوا أنهم يستجيبون لطلب مباشر من الله، فإن دوافع القادة من ملوك وأمراء كانت بحت توسعية. فقد ورد في «أنشودة أنطاكية» ـ التي كتبها شاعر ومؤرخ واكب الحملة الأولى ـ أن غودفروا دو بويون الذي كان يحاصر أنطاكية كان يحلم بأن يحتل بلاد فارس، وينكّل بسلطانها قبل أن يعرّج بطريق العودة لينتزع الشمعدانين المضيئين أمام تمثال محمد [(١)].

لقد كان الهاجس المسيطر على معظم القادة إخضاع الشرق بأكمله، كما ستكشفه بعد سنوات قليلة أحداث الحملة الرابعة التي قرّر فيها الصليبيون اقتحام القسطنطينية، واقتسام الأمبراطورية البيزنطية فيما بينهم.

إلا أنه لا بد من الاعتراف بأن العامل الديني في القرون الوسطى كان الأقوى بسبب سيطرة الكنيسة على مناحي الحياة السياسية، والثقافية، والاقتصادية في أوروبا. فبالرغم من الصدمة القاسية التي تمثلت باستعادة المسلمين للقدس عام ١١٨٧، ومن بعدها سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣، كان البابوات يرصدون أية بارقة تساعدهم في إذكاء الروح القتالية. وقاموا بمحاولات عديدة لاستنهاض الهمم من أجل معاودة «الجهاد المقدس» ولكن بدون جدوى. فعلى سبيل المثال قام البابا أوجين الرابع [Eugène IV] عام ١٤٤٢، بكتابة رسائل إلى الملوك والأمراء في مختلف أنحاء أوروبا يحضهم على التفكير في السبل الآيلة إلى معاودة القتال في الشرق، فلم يتلقَ جواباً واحداً. أما خلفه، نقولا الخامس، فقد كان من سوء طالعه سقوط القسطنطينية، وهو في السدة البابوية. ولم

تنفعه النداءات المتكررة لإطلاق حملة صليبية إيطالية .وكرر خلفه كاليكست الثالث CalixteIII المحاولة عام ١٤٥٦، ولم يكن أوفر حظاً من سلفه. وبعده دعا البابا بيوس الثاني PieII ملوك وأمراء الإفرنج إلى اجتماع في مدينة مانتوفا Mantova الإيطالية عام ١٤٥٩، ولكن المقاعد بقيت فارغة، مما أغرقه في حزن عميق وكتب تقريره الشهير. ومما جاء فيه : «إننا نغط في سبات عميق...إننا نتقاتل فيما بيننا تاركين الأتراك يصولون ويجولون. فمن أجل أتفه الأسباب نرى المسيحيين يحتكمون إلى السلاح ويخوضون المعارك الدامية فيما بينهم. أما حين يدعون إلى قتال الأتراك الذين يتحدّون إلهنا ويدمرون كنائسنا، فلا نرى أحداً في الساح. والحقيقة أن المسيحيين في أيامنا الحاضرة قد تهربوا من مسؤولياتهم وأصبحوا عديمي الفائدة لدينهم»(٢).

أمام هذا الواقع المرير لم يكن أمام البابا بيوس الثاني عام ١٤٦١، سوى كتابة تلك الرسالة المؤثرة إلى السلطان محمد الفاتح والتي يدعوه فيها إلى اعتناق المسيحية: «... في هذه الحال كثيرون سيخضعون لك طوعاً. وستكون مهمتك إذلال الطغاة ومساندة الأخيار ومقاتلة الأشرار. ولن تكون الكنيسة الرومانية في عداء معك إذا ما سرت في طريق الحق، إذ إن أعلى سلطة كنسية ستضمّك إلى صدرها، بحب يوازي حبها للملوك الآخرين. هذا إذا لم نقل إن موقعك سيكون متميزاً عنهم .وفي هذه الحال ستتمكن من احتلال ممالك عديدة بدون قتال أو إراقة دماء» (٣).

لا ندري إذا كانت هذه الرسالة حاملة الحل السحري قد وصلت فعلا إلى محمد الثاني، إنما من المؤكد أن البابا لم يتلق أي جواب على هذا العرض المغري. هذا القلق المتزايد لم يكن بعيدا عن بلاط الملوك وقصور الأمراء. فمن بركنديا أرسل الدوق فيليب عام ١٤٢١، مجموعة من الجواسيس إلى الشرق لجمع المعلومات الدقيقة عن وضع الجيش التركي، أملا في وجود ثغرات تتيح له معاودة الحملات العسكرية. أما ملك إنكلترا هنري الخامس، فصرح وهو على فراش الموت عام ١٤٢٢، بأنه لم ينقطع قط عن التفكير بتحرير القدس، ولكن الظروف لم تكن مؤاتية لتحقيق هذا الحلم. وفي عام ١٤٥٤، حاول الملك شارل السابع إثارة الحماس في مدينة ليل، فلم يلق تجاوبا. ولم ينطوِ حلم الحملات الصليبية حتى مطلع القرن السادس عشر؛ حيث وعد ملك فرنسا فرانسوا الأول البابا لاوون العاشر بأن يجهز حملة قوامها خمسون ألف مقاتل، شرط أن يتأمن له أسطول بحري.

ففي مواجهة الخيبات المتكررة لم يكن أمام الخيال الشعبي في أوروبا سوى التفلت من عقاله. من هنا تكاثرت الروايات والقصص المرتكزة على الأوهام وهي تحمل في طياتها تعويضا نفسيا عبر الهروب من الواقع. وأبرز ما يمثل هذه الحالة النفسية في الأدب رواية «صلاح الدين» التي كُتبت حوالي العام ١٤٦٥، وأُعيد نشرها محققة عام ١٩٧٢[٤].

ثانياً- من النهضة إلى التنوير: بين الانفتاح على الآخر والحنين إلى الماضي

انتهت حقبة القرون الوسطى بسلسلة من الهزائم والخيبات، وبدا أن مرحلة جديدة تتوضح معالمها في أوروبا. فالقرن السادس عشر كان عصر الاكتشافات الجغرافية: أميركا، كندا، طريق الهند البحرية... إنه عصر النهضة، عصر الشمولية والنظرة الجديدة إلى الكون. وفي الوقت نفسه تبدلت هوية الخصم المزعوم، فالشرقي لم يعد ذاك العربي «الكافر» وإنما التركي الذي أسقط بيزنطية (١٤٥٣)، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، ومصر (١٥١٥-١٥١٧)، والعراق (١٥٣٤)، وبلدان أفريقيا الشمالية (١٥٢٩-١٥٧٤). لقد تحوّل الآخر إلى قوة يُحسب لها ألف حساب. فسقط حلم الاحتلال المباشر واستُعيض عنه برغبة كامنة في ترويض الخصم. وكانت العلاقات السياسية في هذا القرن تتم بين عالمين شبه مقفلين، أحدهما على الآخر، بالرغم من العلاقات التجارية التي اتخذت منحى إيجابياً بفعل الازدهار الاقتصادي لأوروبا، وتطور وسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية. وخيّل للبعض أن التصورات القديمة والقوالب الذهنية في طريقها إلى الاندثار، بعد أن نادى مفكرو النهضة بالتسامح وقبول الآخر، وتحكيم العقل. ولكن ما أن شكّل الجيش التركي تهديداً مباشراً لمدينة فيينا عام ١٥٢٩، حتى انبعثت الروح العدائية مجدداً -ولم تكن بعد قد خمدت-، فتعالت الأصوات في أرجاء أوروبا، منددة بالإسلام القائم على العنف والمعادي للعقلانية، مطالبة أصحاب الشأن باعتماد القوة للحد من خطره.

في تلك الحقبة تصاعدت حدة الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت في كافة أرجاء أوروبا، فسارع الفريقان المتناحران إلى استخدام الإسلام -كنموذج سلبي للتنديد بالخصم-، وراح كل فريق يرشق الفريق الآخر بتهمة «الإسلاموية» التي انتشرت كمرادف للخطيئة والانحراف أو الخيانة. من هنا عادت التصورات القديمة المشوّهة حول الإسلام إلى البروز حاملة في طياتها شحنة أيديولوجية مغايرة لروحية القرون الوسطى؛ لأن هدف المفكرين أو اللاهوتيين لم يكن المساجلة المباشرة مع الإسلام، وإنما استخدام نموذجه كوسيلة في المجادلات اللاهوتية المحتدمة.

الا أن هذا الجهد التبشيري الذي بذله الفريقان قادهما إلى دراسة اللغات الشرقية كمفتاح لفهم الأتراك والعرب والمسلمين، فبرز اتجاه لافت إلى التخصص في دراسة اللغات والنصوص الأدبية والفكرية إلى جانب التخصص في المعارف والعلوم. هذا التوجه نجد صداه في اهتمام الكوليج دو فرانس في باريس بجمع المخطوطات العربية، وترجمتها وطباعتها، وقد أنشأ لهذه الغاية أول كرسي لتدريس اللغة العربية عام ١٥٣٨، وأوكل الملك فرانسوا الأول هذه المهمة إلى غليوم بوستيل [Guillaume Postel] بعد أن كان أوفده إلى تركيا وطلب إليه أن يُحضر معه إلى باريس كل ما يستطيع الحصول عليه من المخطوطات الشرقية النفيسة [٥].

إلا أنه ومع إطلالة القرن السابع عشر وجدت أوروبا نفسها منصرفة إلى أحلامها بعد أن انفتحت أمامها أبواب العالم بفضل الاكتشافات، وتولّد لديها الشعور بأنها أصبحت مركز الثقل بفضل ازدهارها الاقتصادي. من هنا لم يعد هاجسها احتلال الشرق عسكرياً، وإنما إخضاعه واستثماره. وقد أتى إنشاء المراكز التجارية (Les Echelles) كوسيلة عملية للتوسع، فتضاعف عدد التجار والرحّالة وكذلك السفراء والقناصل الذين تنامى دورهم نظراً للموقع المميّز الذي احتلوه لدى الباب العالي بفضل نظام الامتيازات (Les Capitulations) والذي بقي ساري المفعول حتى مطلع القرن العشرين. وقد شكّلت تقارير القناصل إلى جانب كتب الرحلات الكثيرة مصدر استنباطِ صور جديدة عن الشرق. إذ تدفق الرحّالة بدافع من فضولهم أو بفضل تكليف رسمي، وراحوا يتبارون في إبراز المنحى الغرائبي للحياة الشرقية، فنشأ تيار عُرف بـ «التغرُّب» أبرز شخصية «التركي» كرمز للعنف والدهاء. وتبلورت تدريجياً نظرية «التسلط الشرقي» لكثرة ما قيل وكُتب عن السرايا والحريم، حيث القهر والقتل سمات راسخة.

بالمقابل قامت محاولات لفهم الشرق والإسلام اكتسبت طابع الجدية، بدليل صدور كتاب «التاريخ الشامل لديانة الأتراك» [٦] عام ١٦٢٥، للكاتب ميشال بوديه الذي - بالرغم من انحيازه في بعض أحكامه - أعطى صورة شاملة عن حياة النبي محمد وتعاليمه. وكذلك صدور ترجمة جديدة للقرآن عام ١٦٤٧، للكاتب دو ربيه [٧] هي أكثر دقة من سابقاتها - ولو اعتراها بعض الشوائب - وظلت معتمدة حتى نهاية القرن الثامن عشر. وفي نهاية القرن صدر «القاموس التاريخي النقدي» (١٦٩٧)، للكاتب بايل [٨] الذي أثبت فيه حقائق كثيرة عن الشرق والإسلام وأعطى صورة عن النبي محمد، فيها الكثير من الموضوعية

والتسامح. كل هذه الجهود توّجها صدور «المكتبة الشرقية» (١٦٩٧)، للكاتب ديربلو [٩] الذي جمع بشكل موسوعي فاق الألف صفحة، كل المعلومات المتوافرة في الغرب عن تاريخ بلدان الشرق، ودياناتها،، وعاداتها، وأشكال الحكم فيها، وفنونه،ا وعلومها، ولغاتها، وآدابها، فاعتُبر الكتاب، أول موسوعة ذات طابع علمي حول الشرق.

في هذا الجو برزت مجدداً لعبة المصالح لتغذِّي هذه الصور، وتفيد منها في مشاريع سياسية، واقتصادية، وعسكرية. فالفيلسوف الألماني ليبنيز تقدم عام ١٦٧٢، من الملك لويس الرابع عشر بمشروع «علمي» للسيطرة العسكرية على الشرق انطلاقاً من مصر. يستعين في مقدمته بكل الصور النمطية السائدة، وبالأخص صورتي التوحش والجهل، ليخلص إلى لب الموضوع: «إن مصر هي المفتاح الرئيسي، وصلة الوصل بين آسيا وأفريقيا، ونقطة الالتقاء، والسوق المشتركة بين الهند وأوروبا» [١٠] . صحيح أن الملك لم يتعامل مع اقتراح ليبنيز بجدية، إلا أن اللجوء إلى الصور النمطية لتبرير مشاريع توسعية سوف يتكرّس في القرون اللاحقة.

ثالثاً- صورة الشرقي العصيّ على التنوير

بدءاً من عصر التنوير في القرن الثامن عشر، ووصولاً إلى نهاية القرن التاسع عشر، حلّت مكان الإيديولوجيا الدينية إيديولوجيا ثورية، قوامها تمجيد العقل والتقدم. وتنامت مع الوقت الفكرة القائلة بأنه لا يمكن للشرق أن يخرج من تقوقعه، إلا بالاندماج بتاريخ الغرب. وسرت كالنار في الهشيم صورة الشرقي الظلامي والحالم والكسول، المفطور على الجهل والعصيّ على التمدن بحكم أنظمة سياسية ودينية تمنع التطور، وتقمع الإنسان. واللافت أن أبرز فلاسفة عصر الأنوار تخيلوا ـ وبشكل اعتباطي ـ رابطاً وثيقاً بين الدين والتخلف، فانزلقوا إلى آراء مشينة قلّ أن نجد لها مثيلاً في القرون الوسطى. من هنا، اعتبر فولناي أن تخلّف المؤسّسات، وجهل الأفراد، وتقهقر الأخلاق في الشرق عائد بصورة أساسية إلى حضور الدين الطاغي. وبدل من أن يحدّ الدين من تجاوزات نظام الحكم، فإنه على العكس يشكّل مصدرها الأساسي: «من المبالغة القول بأن فكر الإسلام يصلح لمعالجة تجاوزات الحكم، بل يمكن القول عكس ذلك؛ أي أنه هو منبعها الأصلي. لنقتنع، علينا أن نتفحّص القرآن. فعبثاً يحاول المسلمون إثبات أن القرآن يتضمن المبادىء الأولية أو حتى تفاصيل الأسس المتعلقة بالتشريع والسياسة والفقه...فمن يقرأ القرآن

يجد نفسه مضطراً للاعتراف بأن هذا الكتاب لا يقدّم أي مفهوم عن واجبات الناس تجاه مجتمعهم، ولا عن كيفية تشكيل جسم سياسي، ولا عن مبادىء فن الحكم. وبكلمة موجزة لا شيء مما يمت بصلة إلى التشريع. والقوانين الوحيدة التي تضمنها تُختصر في أربعة أو خمسة أحكام، تتعلق بتعدد الزوجات، والطلاق، والرق، والإرث. وما تبقّى لا يعدو كونه خليطاً غامضاً من جمل فارغة من المعنى، وإطناباً في مدح صفات الله مما لا يفيد في شيء، ومجموعة من القصص الساذجة والحكايات التافهة. وهو بصورة إجمالية سطحي، وممل بحيث يصعب على المرء أن يتابع قراءته حتى النهاية، رغم سلاسة ترجمة سافاري. وإذا كان ثمة روحية عامة أو معنى مختصراً يبرز عبر فوضى هذا الهذيان المستمر، فإنها روح التعصّب الجارف والمتزمت. وقد تسأم الأذن من سماع ترداد العبارات الدالة على الكافرين المشككين، أعداء الله والرسول، أو على العكس، على الإخلاص لله ورسوله. هذه هي روحية القرآن... والنتيجة ليست غير بعث روح التسلّط المطلق عند أصحاب الأمر من جهة، والخنوع الأعمى عند من يطيعونهم من جهة أخرى. ذاك كان هدف محمد، فهو لم يكن يريد إنارة الأذهان وإنما السيطرة عليها، لم يكن يبحث عن تلاميذ بل عن أتباع» [١١].

ولم تكن آراء صديقه فولتير بأقل فظاظة. فهو حين قدم مسرحيته «التعصب أو محمد الرسول» عام ١٧٤١، صبّ جام غضبه على الإسلام، وهو على جهل تام بالعقيدة الإسلامية [١٢]. إلا أن هذه النظرية التي روّج لها فلاسفة عصر التنوير والتي تربط بين الدين والجهل من جهة، والعقل والتقدم من جهة أخرى، ما لبثت أن تكشّفت عن مشاريع أبعد ما تكون عن مقولة نشر أنوار المدنية الغربية.

ففولناي أحد أبرز المنادين بتمدين الشرق حث بلاده عام ١٧٨٨، على احتلال مصر، ولكن الدوافع التي يوردها تتجاهل كلياً تنظيره الفلسفي: «إن مصر من أكثر أراضي المعمورة خصباً وسهولة للزراعة...كما أن مساحتها شاسعة ومحاصيلها تجمع ما بين منتوجات أوروبا وآسيا. هذا عدا عن كونها الأقرب إلى فرنسا، فخلال عشرة أيام تصل مراكبنا الحربية من طولون إلى الاسكندرية لتواجه بلاداً تنقصها الحماية الكافية ويسهل احتلالها كما المحافظة عليها... وعن طريق مصر نسيطر على طريق الهند، ونستقطب تجارة البحر الأحمر، ونعيد إلى التجارة عبر السويس تألقها بدل مرور البضائع برأس الرجاء الصالح. كما يمكننا استقطاب خيرات أفريقيا كالتبر والعاج والسكاكر والعبيد...وبهذا تصبح جاليتنا أو حتى فرنسا مستودع أوروبا والعالم بأسره» [١٣].

لقد وجدت هذه النصيحة آذاناً صاغية، فلم يتورع بونابرت الذي قرأ فولناي بتمعن شديد من اللجوء إلى مغامرة عسكرية عنوانها الظاهر نشر القيم الكونية للحضارة الغربية، فكانت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨، والتي بالرغم من بعض مظاهرها الإيجابية، بدت كتحالف كاريكاتوري بين السيف والقلم، إلى درجة أن بونابرت ادّعى بأنه مرسل من قبل العناية الإلهية لكي يخلّص العرب من البرابرة ويصحّح مسار الدين الإسلامي الذي شوّهه الجهلة والمسيئون. هذه الصورة النمطية للشرقي القاصر عن سلوك معارج التقدم والعصيّ على التنوير والذي يحتاج لمن يأخذ بيده بغية تمدينه سوف تتبلور في القرن التاسع عشر الذي شهد عام ١٨٣٠ تصويباً في تحديد الأهداف من المشرق العربي إلى مغربه عبر حملة الجزائر. وعبثاً حاول الفرنسيون تقديم أنفسهم على صورة المحرّرين الذين جاؤوا لوضع حدّ للقمع التركي ومساعدة الجزائر على التقدم، فقد كانت الدوافع السياسية والاقتصادية واضحة للعيان. هذه الحملة شجّعت على بلورة مخططات للتوسع، فنرى سياسياً ومفكراً مثل لامارتين يقترح عام ١٨٣٥ في ملحق أضافه على كتاب رحلته إلى الشرق مخرجاً لحل الأزمات والتقلبات في أوروبا عبر اللجوء إلى التوسع: «**هناك حالة ضاغطة تُلزم فرنسا وأوروبا بالتوسع، ومن الضروري أن يكون التوسع نحو الخارج متلائماً مع حجم المشكلات التي تتفاقم في الداخل...فالمخاطر كثيرة جداً، وإذا ما تقاعست حكومات أوروبا عن إيجاد تدابير وقائية فإن مجتمعاتها تتجه نحو الدمار في وقت ليس ببعيد**»[١٤]. بهذه الروحية المغلفة بالكثير من المشاعر النبيلة يوصي لامارتين باستعمار الشرق محدداً الوسائل والأهداف بشكل لا يقبل اللبس. فمن واجب الغرب – المعلم أن يأخذ بيد الشرق الضعيف ويقوده على درب التقدم، إلا أن الهدف الفعلي لا يخرج عن إطار السعي الحثيث لحل أزمات أوروبا الداخلية.

هذا التوجه العام انكشف بشكل سافر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع انتصار الثورة الصناعية، وما استلزمته من تأمين أسواق جديدة، وتوفير المواد الأولية والسيطرة على مصادر الطاقة. وهنا لم يعد خفياً أن الصراع الفرنسي – الإنكليزي الذي ظهر جلياً بعد شق قناة السويس عام ١٨٦٩ كان للسيطرة على المنطقة نظراً لأهميتها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية، وليس من أجل الأخذ بيد شعوبها نحو «التحضر». تُوّج هذا التنافس باحتلال الإنكليز لمصر عام ١٨٨٢، فيما اضطر الفرنسيون إلى الانكفاء نحو تونس والمغرب ولا حقاً نحو أفريقيا السوداء.

هكذا بدت صورة الشرقي الجاهل جزءاً من الوقود الخطابي الذي يخفي تحت قشرة واهية الصراع الاقتصادي والسياسي. فأوروبا التي اعتبرت نفسها مسؤولة عن القيام بدور حضاري تمديني للشرق ألصقت به صور الهمجية والقبلية والبدائية والتخلف بحثاً عن مسوّغ يكون ذريعة لهيمنتها.

لكن العامل الديني سرعان ما برز إلى الواجهة في نهاية القرن التاسع عشر. فبعد اندلاع تمرد بوعمامة في جنوب وهران في الجزائر (نيسان ١٨٨١) وتمرد القبائل التونسية (حزيران ١٨٨١) وتنامي الاضطرابات في مصر ضد الإنكليز تداولت وسائل الإعلام الغربية مقولة «المؤامرة الإسلامية الشاملة»، وهي فكرة أطلقها رئيس الوزراء الفرنسي جول فيري (١٨٣٢-١٨٩٣) الذي اتخذ قرار الحملة على تونس، إذ تكلم أثناء استجواب المعارضة له في البرلمان عن «استيقاظ التعصب الإسلامي». ترافقت هذه الأجواء مع تنامي إيديولوجيا الجامعة الإسلامية التي ركّز مفكروها على مسألتي الإصلاح والهوية، كما شددوا في ذات الوقت على تطهير الإسلام من الشوائب باعتباره أساس المقاومة الدفاعية للشرق ضد الطموحات الغربية.

رابعاً- العرب/الإسلام/الإرهاب: السياسات المعاصرة

إن لوحة القرن العشرين هي بدون شك أكثر تعقيداً. فمذ تقطعت أوصال السلطنة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وقُسّمت ممتلكاتها بشكل أساسي بين الإنكليز والفرنسيين، أكسب اكتشاف النفط المنطقة العربية، بالإضافة إلى أهميتها الاستراتيجية، أهمية اقتصادية أكيدة. وكان أن دخلت الولايات المتحدة الأميركية بقوة إلى ساحة الصراع، في الوقت الذي كان تحوّل أساسي قد حصل في المقلب الروسي من خلال ثورة ١٩١٧. ترافق ذلك مع متغيرات في الشرق الأوسط عبر دعم الإنكليز للمستوطنين اليهود في فلسطين مما أفضى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نشوء دولة إسرائيل.

وتتالت الأحداث، من أزمة السويس عام ١٩٥٦، إلى حرب ١٩٦٧، إلى أزمة أسعار النفط، إلى تحول القضية الفلسطينية إلى الصراع المسلح وأزمة خطف الرهائن، إلى انتصار الثورة الإيرانية، إلى الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفياتي، إلى مشكلة الهجرة، إلى اكتشاف البرنامج النووي العراقي وحرب الخليج، إلى نهوض الحركات الإسلامية، وصولاً إلى أحداث ١١ أيلول... كلها بالطبع قضايا كان لها تأثير بالغ في

تشكل صورة العربي العاشق للعنف، الساعي إلى زعزعة استقرار الغرب وتهديم حضارته.

في كل هذه المحطات الكبرى التي ذكرنا -وفي غيرها مما يضيق المجال عن ذكره- عمل الإعلام في الغرب وبصورة خاصة في أميركا على تعميم صورة مهينة للعربي. ففي السبعينيات كثرت الإشارات إلى العربي في زيّ بدوي يقود قافلة جمال في الصحراء أو يمسك بخرطوم محطة وقود، أو على صورة متهتك فاسق. إلا أنه سرعان ما سرت مقولة أن في داخل كل عربي إرهابي كامن لا يتوانى عن تفجير حقده على منجزات الحضارة الغربية ما أن تسنح له الفرصة.

كان من الطبيعي أن تتلقف الدعاية الصهيونية هذه التوجهات وتغذيها لتبرز إسرائيل كجزء من التاريخ الغربي، وهي محاطة بأشرار لا يؤمنون بقيم الغرب كالحرية الفردية والديمقراطية وحكم القانون وحقوق الإنسان والحرية الثقافية إلخ. لقد كانت على جهوزية تامة لاقتناص الفرص حتى الصغيرة منها، لمحو عمل أشهر أو سنين من جهود تبذل لتحسين صورة العرب في الغرب. فانفجار أوكلاهوما عام ١٩٩٥ يستتبع تعميم صورة رجل إطفاء يحمل طفلة قتيلة وفوق الصورة عنوان: «باسم الإسلام». وانفجار قنبلة في محطة مترو، كما حصل في باريس عام ١٩٩٦، يصوّر في اليوم ذاته من صنع عرب مسلمين. وبالطبع لم تفوّت هذه الدعاية مناسبة سلمان رشدي ونصر حامد أبو زيد والباكستاني المرتد في الكويت والحجاب في المدارس الفرنسية، فبالغت في تصوير هذه القضايا كنموذج للصراع الحضاري.

هذه الصور المنمّطة التي راجت في الإعلام وجدت لها تجسيداً ودعماً في مؤلفات بعض المفكرين أمثال ستيف إيمرسون في كتاب «الجهاد»، وبالطبع في آراء هنتنغتون التي شكّلت الحاضن الفكري لمثل هذا التوجه في كتابه «صدام الحضارات» (١٩٩٦)، قبل أن تستغل هوليوود هذه الأجواء وتنتج عام ١٩٩٨ فيلم «الحصار».

بهذا الشكل تم الانتقال من التهويل بالخطر العربي إلى تكهنات ذعرية أوسع مدى شملت العالم الإسلامي بأسره، فأصبح الكلام على الأصولية الإسلاموية رائجاً وخلاصته أن الإسلام حضارة عنيفة وهو غير متلائم مع الحضارة الحديثة، ولا يمكنه التعايش معها سلماً.

وإذا كانت الدعاية الصهيونية ماهرة في اصطياد الفرص، فهل يعقل أن تضيّع مناسبة بضخامة أحداث ١١ أيلول، وكانت صورتها قد بدأت تهتز منذ بدء الانتفاضة التي حملت إلى العالم صور قتل الأطفال برصاص الجيش الإسرائيلي؟ هكذا وبسرعة قياسية قفزت مجدداً إلى وسائل الإعلام لتعيد تلميع صورتها، فرصدت مائة مليون دولار لشركات الدعاية المختلفة. وفجأة بدلاً من صورة الفلسطيني المعتدى عليه والذي يرزح تحت الاحتلال، ظهرت صورة الفلسطيني الإرهابي، وعادت اللوحة تُشكِل على المشاهد الغربي العادي؛ إذ اختلطت في ذهنه حرب أميركا والغرب ضد الإرهاب، وحرب شارون ضد الفلسطينيين وسلطتهم. وزاد من ترسيخ هذه الصورة المشوّهة تكاثر الكلام في وسائل الإعلام وبوتيرة ضاغطة، حول الإرهاب الفلسطيني، أو الليبي، أو الإيراني، أو الأفغاني، أو الجزائري؛ أي باختصار الإرهاب العربي أو الإسلامي. تزامنت هذه الحملة المبرمجة مع كلام سياسي يزن الأمور بمقياس أخلاقي مبسّط يتمحور حول الخير والشر. فإذا بالمواطن العادي في الغرب ينظر إلى أي حدث عنفي يطال أهدافاً أميركية، أو أوروبية، أو حتى إسرائيلية كنوع من الهجوم الثقافي على طريقته في الحياة وعلى قيمه، من أناس كارهين ورافضين لكل ما هو حديث. وهذا الانزلاق الساذج يصب بدون شك في خدمة النخب الحاكمة سياسياً وإعلامياً واقتصادياً؛ لأنه يمكن قولبته في الشكل المناسب.

خلاصة

إذا تفحصنا بتروٍ العوامل التي تحكم علاقة الغرب بالعرب وبالمسلمين بشكل عام لا بد وأن نقر بأن هناك تداخلاً بين القومي والديني، بين العرب والإسلام. إلا أن العامل السياسي والاقتصادي يبقى هو الحاسم. فالنموذج التبسيطي الذي يصوّر الغرب مسيحياً والشرق إسلامياً وصراعهما الثقافي حتمي لا يجد سنداً له في محطات كثيرة كتدخل الغرب في الكويت عام ١٩٩١، والبوسنة عام ١٩٩٥، وكوسوفو عام ١٩٩٩ وكلها شعوب مسلمة. لا بد إذن من تسليط الضوء على دوافع أخرى؛ لأن الدول لا تفتش عن الروابط العاطفية والأخوية بقدر ما تسعى إلى تأمين مصالحها العسكرية، والسياسية، والاقتصادية. فالواضح أن القضية الجوهرية هي المصلحة التي تتلطّى خلف تبريرات ثقافية لتكتسب شرعيتها. لا بد إذن من السعي لكسر حلقة سوء الفهم المتبادل، بالرغم من إدراكنا أن إسرائيل سوف تبقى مصدر تأزيم لعلاقتنا بالغرب وأن المصالح الاقتصادية للغرب في بلادنا بالغة الأهمية.

يجب أن ندرك بأن الغرب ليس كتلة واحدة صمّاء، وأن عدداً لا يستهان به من المفكرين الغربيين يعارضون سياسات بلادهم القمعية والمعادية للشعوب الأخرى[15]. من هنا فإن تحسين صورتنا يحتاج إلى الكثير من الجهد والاحتراف في التعاطي مع الآخرين ومع أنفسنا على حد سواء. إذ لا يجوز مواجهة القوالب الجاهزة بقوالب أخرى نقيضة تأتي تأكيداً لها، ولا بالصيغ المبتذلة لمعاداة الغرب، كأن نهلّل أو نعقد حلقات الرقص أو نطلق النار ابتهاجاً حين تضرب مأساة بلداً غربياً، ولا بتبرير الفقر والحرمان والجهل والقمع الذي تعاني منه مجتمعاتنا بإلقاء التبعة على الآخرين بحجة أنهم يعيقون تقدمنا، ولا بالطبع بدق نواقيس الخطر ضد العولمة التي سوف تسلبنا هويتنا الثقافية والحضارية فننقاد إلى الانغلاق ورفض الآخر بشكل قاطع. إن دخول العصر يقتضي منا استيعاب المتغيرات والتطورات على صعيد العالم، واستعادة الثقة بالنفس، وإعادة بناء ثقافتنا على أسس معرفية وموضوعية بعيداً عن التقديرات الوهمية أو الغيبية، وذلك كي لا نبقى مجرد متلقين متذمرين، بل نتحول إلى شركاء فعليين في حركة التطور الحضاري الإنساني. إنه تحدٍ لذواتنا، وهو بالتأكيد أصعب من التحدي الكلامي الذي نرفعه في وجه الآخرين.

الهوامش

١-أنشودة أنطاكية ، النشيد الثامن، المقطع ٥٥ (تنسب الأنشودة إلى Richard le pèlerin وقد كتبها مابين الأعوام ١٠٩٩ و ١١٠٢).

من أجل مراجعة نص الأنشودة، أنظر كتاب: Croisades et pèlerinages, Edition établie sous la direction de Danielle Régnier-Bohler, Paris, Robert Laffont 1997.

٢- أنظر كتاب: VON PASTOR L, Histoire des Papes III ,p 73 - 74

٣- نص مأخوذ من كتاب SENAC Philippe: L'image de l'Autre, Paris, ssFlammarion 1983 p.159.

٤- SALADIN, Suite et fin du deuxième Cycle de la Croisade, édition critique par Larry Crist, Droz/Minard 1972

تقدّم هذه الرواية خير نموذج عن الخيال الشعبي الذي يستطيع بشطحاته تطويع الأحداث وإعادة صياغتها. إنها أقرب إلى الأسطورة، حيث يطلق الكاتب العنانَ لهلوساته وتخيلاته وكوابيسه، فيغيب الحدث وتتشوّه الصورة وتتغير الوجوه والأسماء. فصلاح الدين المدافع عن الإسلام وقاهر الصليبيين يتحول وبعملية احتوائية سحرية إلى سليل أسرة إفرنجية، ولا يلبث أن يطلب العماد ويعتنق المسيحية. فما لم يسهل على الغرب تحقيقه بواسطة السلاح يتحقق بالخيال. ويتكرر الأمر بالنسبة للوقائع العسكرية. فمعركة حطين التي قضت على آمال الافرنج، تتحول إلى معركة وهمية فاصلة على مشارف دمشق حيث يستبسل الإفرنج ويطاردون فلول المسلمين، «بعد أن انزلوا راية محمد ومزقوها إرباً» (ص ١٦٧). ويذهب خيال المؤلف إلى أبعد من ذلك. فما لم يفعله صلاح الدين -البطل المسيحي- بنفسه يتولى إبنه، المدعو كذلك صلاح الدين تحقيقه. فصلاح الدين الإبن احتل جميع الممالك والمدن التي كانت بحوزة «الكفرة» لتصبح «إلى ما شاء الله تحت راية سيدنا يسوع المسيح» (ص١٦٩).

٥- توزعت اهتمامات بوستيل الفكرية في اتجاهات متنوعة، فأصدر عشرات الكتب، منها: «القواعد العربية» (١٥٣٩) Grammatica Arabica، «القرآن أو شريعة محمد» (١٥٤٣) Alcorani seu Legis Mohameti، «التوافق الكوني» (١٥٥٤) De orbis terrae concordia، «جمهورية الأتراك» (١٥٦٠) De la République des Turcs. هذا «العلامة المجنون» كما لُقّب آنذاك يُعتبر أفضل من يمثّل روحية عصر النهضة، إلا أن كلامه الإيجابي عن الإسلام وتسامحه -وإن بخفر- أثار حفيظة خصومه. ولم تلبث رقابة رجال الدين أن فعلت فعلها فسُجن ثم أُعلن معتوهاً. وقد اضطر لأن يتراجع أكثر من مرة وعلناً عن بعض الآراء المتعلقة بالإسلام وبالنبي محمد، إلا أن ذلك لم يبيض صفحته وبقي معزولاً ومحاصراً حتى وفاته عام ١٥٨١.

٦- BAUDIER Michel: Histoire générale de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur prophète Mahomet, Paris, Cramoisy 1625

٧- L'Alcoran de Mahomet translaté d'arabe en français par le Sieur Du Ryer,1647

٨- BAYLE Pierre: Dictionnaire historique et critique, (4 vol.), Paris

٩- HERBELOT de MOLAINVILLE Barthélémy d': Bibliothèque orientale ou dictionnaire universel contenant tout ce qui regarde la connaissance des Peuples de l'Orient, Paris, Compagnie des Libraires 1697

١٠- LEIBNIZ: Projet d'expédition d'Egypte présenté à Louis XIV ou Consil-

ium Aegyptiacum (1672) Oeuvres,Paris, Firmin-Didot 1864, p.47.

١١- VOLNEY: Voyage en Egypte et en Syrie, Paris, Mouton & La Haye 1959, pp.371-372

١٢- Le Fanatisme ou Mahomet le Prophète, Théâtre du XVIIIè siècle, Tome I, éd. La Pléiade, Gallimard 1972

١٣- VOLNEY: Considérations sur la guerre actuelle des Turcs, Londres 1788 pp.442-443

١٤- LAMARTINE: Voyage en Orient (2 tomes), Paris, Hachette 1904, pp.515-516

١٥- أنظر على سبيل المثال البيان الذي وقعه نحو ألفي مثقف وأستاذ جامعي وفنان أميركي في الذكرى الأولى لأحداث ١١ أيلول، وفيه يرفضون السياسة التي انتهجتها ادارة الرئيس جورج بوش منذ هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١، معتبرين أن هذه السياسة أسست لمبادىء قمعية متصلبة مما يشكل أخطاراً جدية على شعوب العالم، وحضوا على مقاومة هذه السياسة التي رأوا أنها ستؤدي إلى الهلاك. وقد جاء في مطلع هذا البيان: «كي لا يقال إن الشعب في الولايات المتحدة لم يفعل شيئاً حينما أعلنت حكومته حرباً لا حدود لها وأسست لمبادىء متصلبة جديدة. نحن الموقعين والموقعات أدناه، ندعو شعب الولايات المتحدة الأميركية لمقاومة السياسات والتوجهات السياسية العامة التي انبثقت غداة الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، والتي تشكل أخطاراً جدية تهدد شعوب العالم كافة. إذ نؤمن بأن الشعوب والدول تملك حق تقرير مصائرها، حرة من القيود العسكرية التي تفرضها القوى العظمى. كما نؤمن بأن كل الأشخاص الذين إما اعتقلتهم الحكومة الأميركية وإما حاكمتهم، لا بد أن يتمتعوا بالحقوق عينها التي تنص عليها الأعراف والإجراءات المتعارف عليها. ونحن نؤمن أيضاً بأنه لا بد من تثمين التساؤل والنقد وحمايتها، إذ اننا نعي أن حقوقاً وقيماً كهذه تكون دوماً موضع نقاش ولا بد من النضال من أجلها. إننا نؤمن بأنه يجب على أصحاب الضمائر أن يتحملوا مسؤولية ما تفعله حكوماتهم، فيجب علينا أولاً معارضة الظلم الذي يرتكب باسمنا. لذا، ندعو كل الأميركيين والأميركيات إلى مقاومة الحرب والقمع اللذين فرضتهما على العالم أجمع إدارة بوش، لكونهما عملاً ظالماً، لا أخلاقياً وغير شرعي. وقد اخترنا مناصرة شعوب العالم كافة...» جريدة النهار، الإثنين ٢٦ آب ٢٠٠٢.